

على ذكر رسائل التعليقات للرصافي

دليل علمي يدحض مذهب وحدة الوجود للأستاذ عبد المنعم خلاف

لخص الأستاذ الفاضل دريني خشبة مقولات احتواها
كتاب أصدره الشاعر العراقي معروف الرصافي تدور حول الإيمان
بوحدة الوجود وحلول الخالق في المخلوق

وكنت اهتمت إلى دليل علمي قاطع يدحض هذا المذهب
ويبقى ضوءاً جديداً أمام العقل البشري الموغل في بحث علاقة الله
بالكون حتى لا ينزل إلى الأخذ به ... اهتمت إليه في
٥ - ١٢ - ١٩٤٠ وسطرته في سجل خطراتي اليومية .
وهمت بنشره في مناسبات عدة أثناء مقالاتي عن الإيمان
بالإنسان ، ولكن أراد الله أن أطرح هذا الدليل في مطارح
البحث والجدل الذي سيثيره حتماً كتاب الرصافي . فهذا هو

في ديوان من دواوين التشریفات ، ولكنها هي مسألة القيام
بأعمال الرجال وأعمال النساء على الوجه الصالح لكل من الجنسين ،
وهذه هي الحقيقة التي ينبغي أن يتلقفها ببقاوات الصيحات
الجديدة في هذا الشرق المسكين . فرب بدعة جديدة هي أحرق
في النباء وضيق العطن ونحوه الرمي من أعرق جهالات
القرون الأولى

فن شاء من ببقاوات الصيحات الجديدة عندنا أن يقال له
إنه « على آخر طراز » فليكن كما شاء على آخر طراز يختاره في
سنة ١٩٤٤ أو بعد ذلك بألف سنة أو ألفين

إنما عليه أن يرد صيحاته البيضاوية في الأقفاص التي تليق
بها ، ولا يتجاوزها إلى حقائق الحياة وقواعد الآراء التي تناط
بها مصائر الأجيال

عباس حمود العقاد

أنسب الأوقات لانصباب هذا الدليل الجديد على ذلك المذهب
القديم الرجعي الذي يرفع رأسه على قلم شاعر يريد أن يستخدم
القرآن ورسول الإسلام ستاراً ودريةً ويزج بهما في الدعوة
إلى مذهبه . مع أن القرآن وبيان رسول الإسلام ليس أوضح
منهما في تبيين الحدود بين الله والطبيعة

وكنت وما أزال داعياً إلى ابتداء التفكير في الطبيعة
وما وراء الطبيعة على ضوء التأمل فيما استطاعت قوة الخلق
والمحاكاة والإنشاء المودعة في الإنسان أن تصنعه وأن تسخره ؛
لأن ما أنشأه الإنسان وما وصل إليه من أسرار الطبيعة جدير
أن ينسب منطقاً التجريدي القديم ونظرة للعلاقة بين الله
والطبيعة

ولكن مع الأسف لا تزال ظلال التجريدات والفروض
القديمة تسيطر على عقول كثير من الباحثين الشرقيين في مسائل
الوجود ، ولا يزالون خاضعين في تفكيرهم الديني والفلسفي
لرجال المدرسة القديمة التي لم تتصل بأصول الثقافة العلمية الحديثة
التي تحتك أيدي العلماء فيها بيد الله وتأخذ منها أسرار الخلق
والتكوين ، ولو أن عقلاً كمقل الرصافي ، أو كمقل الزهاري
استطاع ذلك الأسلوب الذي ندعو إليه ، وهو أسلوب تجديد
النظر في الوجود على أساس أسرار الإنسان الحالية ، إذن ما وجدنا
ضرورة إلى اعتناق مذهب وحدة الوجود . . . ولكنهما عقلان
متأثران بالباحث الصوفية وفلسفاتها القديمة التي أوغلت في
بحث قد أثبتت الحياة أنه لا طائل وراءه بل وراءه كل الهلاك
والهبلية والضيايق والاختلاط

ولقد غزا هذا المذهب عقول بعض الفلاسفة والصوفية
الذين آفتهم أنهم طلبوا أن يدركوا الله وما وراء الطبيعة
بالحواس التي يدركون بها الطبيعة وبالعقل البشري المخلوق
لإدراك النسب بين كائنات الطبيعة وحدها أولاً . فلما مجزوا
عن رؤيته تعالى وإدراكه - كما هو المنتظر - ذهبوا إلى أنه لا بد
أن يكون الله هو هذا الوجود الظاهر ، وأنه يحل فيه وليس له

وجود منفصل عنه ، وهكذا نجد الوثنية التي حاربها الأديان والفلسفات السامية سندا عظيما من هذه الفلسفة التي تميش في ظلال هذا المذهب

وهكذا تتحول كل الطبيعة إلى أصنام آلهة
وهكذا تعود الحجارة والبقر والخنازير ومعبودات
إلهية ...

وبدهى أن النظرة الأولى تهدي إلى أن الله غير الطبيعة .
وأن هناك انفصالا بين الخالق والمخلوق

ولكن النظرة البديهيّة هذه كثيراً ما يطمسها التأمل الذي لا يقنع بالظاهر الواضح ، ولا يرضيه الوقوف عند ما يوحيه المنطق العملي ، بل يلذ له أن يلجأ إلى الفروض ويحاكم فكرة الله إليها ... ولا شك أن هذا إيغال مهلك لا طائل وراءه إلا الضياع والبلبلة

وقد ذهبت بي نظراتي في النفس والوجود إلى أن الوقوف على سطح الوجود هو المنطق الذي لا نملك غيره ما دمنا محدودين ضئيلين في أرض ضئيلة الحجم جداً بالنسبة إلى الوجود الأعظم الذي نرى منه بعض سطحه حين نسرّح أبصارنا في السماء ... فكل إيغال وراء ما توحيه البدهاية يكون وراء الشرود والجروح والبلبلة . فالإحساس بانفصال النفس عن الكون وانفصال الله عن الكون تبعا لذلك هو تلك النظرة البديهيّة التي لا نملك غيرها إن أردنا أن نسير مع المنطق العملي للحياة . وأن نحل أكثر مشكلات الوجود ، وأن بطرد تقدمنا البشري وأن نحدد المسؤوليات والتبعات ، ولا نختلط الحدود ولا تسقط التكيفات ولا تهدر قيم الأشياء

أما اعتناق مذهب (وحدة الوجود) فعناء الاختلاط والتشويش والنفوس والتباس المقاصد وذهاب الاختيار بين الخير والشر

وبدهى أن الحياة الاجتماعية وصلاحها هي الفاصل في الأمور الجدلية ، أو ينبغي أن تكون كذلك . والحياة الاجتماعية

تأبى هذا المذهب كل الإباء ولا تحتمله لحظة . لأنه أعظم أسباب انهيارها ودمارها ! فإن الإنسان سيكون بهذا المذهب إله نفسه لأنه جزء من الخالق ... وسيكون الآلهة بعدد المخلوقات أو بعدد الناس على أقل تقدير !

وإن الحياة الحالية لم تحتل شطط الإنسان وجبروته ومتابعة هواه ، وهو يعتقد أنه مخلوق تافه مشغول له خالق سيحاسبه حساباً عسيراً ... فما بالك به حين يعتقد في نفسه أنه إله أو جزء من الإله !

لقد ضرب الإنسان العالم بالأضغان والمدصرات وأشمل الحياة وهو طفل عاجز قاصر ... فما بالك به إذا حسب أن إرادة نفسه هي من إرادة الكون كله !؟

إن الأمر أعظم مما يتصور هؤلاء الفلاسفون المأفوكون ! وإن الحياة العقلية لم تقبل أن يكون للكون آلهة متعددة من العقلاء ... فكيف بهم إذا كانوا مجانين ؟

فاللهم اهد الرصافي في شيخوخته وصره إلى منطق البدهاية حتى يمود إليك على دين الفطرة التي بلقاك بها الفطريون المؤمنون الذين يتركون لك ما لم يستطيعوا إدراكه في حياتهم المحدودة !

هذا جدل يعتمد على النظر وتقلب المسألة أمام المنطق التجريدي الذي يصطنعه أصحاب المذهب ، ويعتمد أيضاً على التحاكم في هذه المسألة إلى المنطق العملي الذي توحيه الحياة الاجتماعية ونو كان الأمر مقصوراً على هذا الأسلوب لوجد أصحاب هذا المذهب مجالاً للمناقشة ورد القول وتشقيق الجدل ، وما كان طمعنا في إخمادهم إلا بقدر

ولكن همدتنا في دحض هذا المذهب حجة بالغة من العلم الحديث صاحب المعجزات التي تخضع لها جميع أعناق البشر ، ولا يستطيع أن يمارى فيها المارون من صناع الكلام وحاذق الجدل

حجة يمينها التأمل بيقظة في أسرار الأعمال الإنسانية العظيمة في الطبيعة : تلك الأعمال التي استعالت إلى آيات من

ووحى أعماله في الأرض ... وسبحان الله ! لقد أقام من الإنسان دليلاً ووسيلة لحل كثير من العقدة والمشكلات ، وخلق صوراً مقربة لبعض شؤونه الجليلة التي يتمجل التمعجلون في الحكم عليها بمقلهم القاصر وفي مدى عمرهم المحدود الذي لا يقاس إلى الأبد الكبير الذي يظهر الله فيه شؤن الخلق والأمر في أدوارها وأوانها الموزون المقدور و« لا يسجل لمجلة أحدكم » كما قال « محمد » سيد الأصفياء العارفين بشؤون الله !

وقد قلت مرة : إن الحياة لم تنقته ولم يبد أنها تقرب من نهايتها التي تنضج بها غايتها وتنضج ثمراتها . فلا يليق بالفيلسوف أن يحكم حكمه النهائي عليها قبل انكشاف غايتها . وأولى به أن يرصد الأدلة التي تلدها الأيام وتضعها على طريق الأحياء يوماً فيوماً لترشد السالكين وتشير لهم إلى الأمام

ومنذ أن اهتدى الإنسان إلى وجود القوة التي يظهر أنها « مادة » الطبيعة الأولى وهي الكهرباء ، وبعد أن شرع بدس يده وفكره في هذه القوة الخفية ويستخدمها ويحرك بها ما يشككه من السادة . ومنذ أن ظن أنه سيصل إلى أن يكشف هذه القوة بدرجات مختلفة تحت ضغوط معينة ليخلق منها العناصر المادية المتبلورة الثلاثة والتسمين ... منذ ذلك كله ، ينبئ المفكرين التجريديين أن يتربصوا أفعاله وكشوفه ليبنوا عليها أحكامهم ومنطقهم وأن يقتصدوا في تلك الفلسفات الفرضية والشطحات الصوفية التي لا نهاية لها ، لأنها « ذاتية » وليست « موضوعية » موضوعها ذلك الكون المادي العجيب الذي استمددنا منه عقولنا وأحكامنا . وأن ينادوا معنا إلى الصوفية المادية التي تعجب وتتعبد بالفكر في الطبيعة الظاهرة وأعمال الله وأعمال الإنسان فيها ، وتعلق بالحسوس قبل التعلق بنيره حتى تفرغ منه قبل نهاية رحلتها على الأرض ، ثم تلفت - إن قدر لها البقاء على الأرض بعد هذا الدور - إلى ما وراء الطبيعة لتبحث فيه وتحكم عليه

هو النعم ضيوف

آيات الكون ير عليها الناس وهم عنها معرضون ، كما يفعلون مع آيات الله في الآفاق ...

وهي تسيطر العقل البشري « باللاسلكي » وتحكمه به في الآلات وإدارتها ورصدها من بعد شاسع ، وانفصال تام بين العقل الإنساني والآلة ... فقد رأينا (ماركوني) يضيء مكاناً في استراليا وهو في أوروبا ... ورأينا الدبابات تزحف والطائرات تطير وتحارب وليس فيها سائقون ... وإنما يديرونها ويتحكمون في تحريكها من بعد

ورأينا « رادار » تلك العين السحرية العجيبة التي حدثتنا مجلة (المختار) عن التقائها أو التقاء الإنسان بواسطتها بالأحجام على مئات وآلاف من الأميال . ومع أنها في العهد الباكر من اكتشافها والانتفاع بها ، فقد انتفعت بها إنجلترا في مقاومة الغارات الألمانية في معركة إنجلترا

ورأينا أن ما يحدث لتلك الآلات ينتقل إلى ذهن الإنسان الراصد لها في لحظة . فهو معها بملحه وقدرته وإرادته بصرفها كيف شاء مع الانفصال التام والبعيد الشاسع بينه وبينها . وهو يكونها ويركبها ويجعل فيها عقلاً وروحاً تحركها وتصرفها . وما دام قد أعطاها قوانينها فلا لزوم لوجوده فيها والمكث بجانبها أو الامتزاج بها

أفلا تقاس على هذا الأساس علاقة الله بالكائنات ؟ وتحمل بذلك تلك المشكلة التي خلقها عقول من لم يروا لهم شيئاً غير اعتناق مذهب وحدة الوجود ؟ بلى ! فإن ما يقدر عليه الله لا يذكر بجانبه ما يقدر عليه هذا الإنسان الضئيل المأجور . ولا شك أن من كمال الإنسال أن يقدر على التصرف في « مخلوقاته » من بعد ، وأن يرصدها ويرقبها ويوجه إرادته إليها وهو متحرر منها منفصل عنها لا يشعر بضرورة الاتصال بها والتقييد بحيزها الضيق ... فأولى برب الكمال المطلق والقدرة المطلقة والإرادة القاهرة أن لا يكون عليه شيء سلطان وألا يتقيد بقيد

وإن في ذلك آية يرسلها الله من التأمل في أصرار الإنسان